نماذج من البيوت التراثية في محافظة الديوانية

م. م. شيماء جاسم حسين البدري

تمهيد

من منن الله تعالى على العراق انه خص بالحضارة العريقة التي كانت الآثار الشاخصة وبقاياها شاهدا على رقي إنسان بلاد الرافدين. حيث إننا لا نكاد نعرف لمحافظة من محافظاته خلوها من موقع اثري ولمحافظة الديوانية نصيبا من بين تلك المحافظات التي تزخر بالمواقع الاثارية المهمة ومبانيها .وجاءت فكرة هذا البحث لدراسة عددا من البيوت التراثية في هذه المحافظة والتي شيد اغلبها في فترة الثلاثينيات من القرن الماضي. وقد عرفت وما زالت تعرف بأسماء مالكيها الأصليين. تقع محافظة الديوانية ضمن النطاق الغربي للسهل الرسوبي حيث تقع في الجزء الشمالي من جنوب العراق وتتوسط منطقة الفرات الأوسط [1]. يحدها من الشمال محافظة بابل ومن الغرب والشمال الغربي محافظة النجف الأشرف من الشرق والشمال الشرقي محافظة ذي قار. تبعد هذه المحافظة عن العاصمة العراقية بغداد حوالي (180كم) [2].أطلق على هذه المحافظة أسم (الحسكة) وتعني لغويا نبات تعلق ثمرته بصوف الغنم [3] . وكان هذا هو الاسم الشائع للمحافظة قبل أن تستبدل بأسم الديوانية نسبة للمضيف الذي بنوه قبيلة خزاعة على شاطئ نهر الفرات . وكان هذا المضيف تحل فيه مشاكل الناس وتعد فيه الولائم فأصبح فيما بعد محط جذب للناس فكثرت البيوت من حوله , ثم أطلق اسم (ديوان الخزاعل) على هذا المضيف وكثرت فيما بعد تسمية ديوان حتى أطلق اسم الديوانية عليها نسبة لدار الضيافة[4] وبعد توسع السكن واستداد رقعة البناء ظهرت العديد من المباني التراثية المختلفة الوظائف المتماثلة التصميم تقريبا في طرزها المعمارية والتي لا تختلف في شئ عن تصميم المباني التراثية التي سادت عموم العراق تقريبا والتي حكم تصميمها وفقا لتوفر المواد الأولية وطبيعة المناخ والحالة المادية وطبيعة المجتمع العراقي. فقد أنشأت أبنية مختلفة منها العسكرية والمدنية. وكانت البيوت التراثية واحدة من هذه الأبنية . الصفة الغالبة على هذه البيوت أنها خضعت في الغالب لأسس معمارية واحدة حكمتها طبيعة المجتمع وتوفر المادة الأولية كما أسلفنا سابقا , فنشاهد البناء ذو الطابق الواحد والسراديب والاواوين والصحن والعقود نصف الدائرية أو المدببة التي تزين أعالي البيوت والشبابيك والأبواب الخشبية المتكونة من مصراعين ذات المطارق الحديدية المختلفة الأشكال وغيرها من الأسس والتي سوف نتطرق إليها في الصفحات اللاحقة.

ولابد لنا هنا قبل أن نسترسل بالحديث عن طبيعة المباني التراثية في المحافظة, أن نتطرق إلى طبيعة وخصائص هذه المباني التراثية العراقية والتي نراها واحدة تقريبا على مر العصور سواء في مواد البناء والتي لم يطرأ عليها تغيير كبير فهي تتأرجح بين الحجارة والطين وصولا إلى تطورها موداً جديدة كالآجر والجص, أو في الأسس الرئيسية التي خضع لها تصميم تلك المباني والتي حكمها طبيعة المجتمع الشرقي المحافظ على إن ابرز ما يميز المباني العراقية سواء القديمة أو التراثية منها هي قدرة البناء العراقي على خلق الألفة بين الأرض والبيئة واستيعاب خصائصها مشيدا مباني تتيح الاستخدام الأفضل للساكنين[5]. وقد تم في هذه الدراسة تقسيم البيوت في فئتين حسب مناطقها , شملت الأولى منطقة شارع الأطباء وتضمنت دراسة كل من (بيت السيد جابر السيد سرحان وبيت الحاج صالح المرسول وبيت الحاج علي الجاسم) , أما الثانية فقد شملت منطقة الحمزة الشرقي وتضمنت دراسة (بيت الحاج صالح المرسول) .

** تخطيط وعمارة البيت التراثي:

لقد امتازت البيوت التراثية في الديوانية بأنها كانت محاطة بأزقة ضيقة مرتبة ضمن مجموعة بيوت . حيث اعتمدت في تصميمها على تصميم البيت الشرقي العراقي الذي اتخذ شكل الساحة الوسطية المكشوفة (الصحن) والمحاطة بمجموعة غرف وبقية ملحقات البيت والسرداب الأرضي الذي يمثل ملاذ مستقل في البناء (تمثل بمجموعها العناصر الرئيسية المشتركة بين البيوت التراثية) .

فإذا رجعنا لمجموعة من هذه البيوت والتي قمنا بدراستها نجدها اتخذت تصميم متقارب. شملت الدراسة مجموعة من البيوت في منطقة صوب الشامية (شارع الأطباء) ومنها بيت الحاج صالح المرسول وبيت الحاج علي الجاسم وبيت السيد جابر السيد سرحان . كما شملت دراستا لبيت الحاج صالح المرسول في منطقة الحمزة الشرقي .

لهذا قمنا بتقسيم البيوت حسب مناطقها في فئتين وهما:

أ- **منطقة شارع الأطباء**: وشملت الدراسة كل من:

1- بيت السيد جابر السيد سرحان
2- بيت الحاج صالح المرسول
3- بيت الحاج علي الجاسم

ب- **منطقة الحمزة الشرقي** : وشملت الدراسة :

1- بيت الحاج صالح المرسول

أ- منطقة شارع الأطباء :

1- بيت السيد جابر السيد سرحان[6]

شيد هذا البيت سنة 1932 ويقع مقابلا تقريبا لبيت الحاج علي الجاسم حيث إنهما يقعان في نفس الشارع . جعل السيد جابر بيته يتألف من وحدتين بنائيتين مستقلتين الواحدة عن الأخرى[7]. فجعل للبيت مدخلان احدهما لأفراد العائلة والآخر للضيوف وكل منهما

يطل على شارع . فبالنسبة للمدخل المؤدي إلى بيت الضيوف فانه يتراجع عن الشارع إلى الداخل بمسافة متر تقريبا يقع على جانبيه شباكين صغيرين يحيطان بالشباكين الرئيسيين الكبيرين . ويعلوه شرفة ذات شكل مثمن مقطوع الرأس كان يحيطها سياج حديدي غير موجود حاليا. (شكل 1) .

يؤدي المدخل إلى ممجاز تبلغ أبعاده (1,72م×1,4م) ويطل عليه شباك من الغرفة الواقعة إلى شماله والتي يبلغ أبعادها (5,10م×4,70م) يقع مدخلها مقابلا للسلم المؤدي إلى سطح البيت كما يقابلها مدخل مستقل يؤدي إلى السرداب عن طريق سلم (سقط في فترة سابقة).

(شكل 1)

أما الغرفة الواقعة إلى يسار المدخل والتي تمثل غرفة استقبال الضيوف والبالغة أبعادها (7,20م×3,70م) فلها أربعة أبواب احدها معطل على الممجاز والأخر يطل منها على غرفة نوم الضيوف ومدخلان فيها يطلان على باحة البيت المسقفة وبينهما شباكان وجميع تلك الأبواب مزلفة من مصراعين . أما غرفة النوم الثانية والواقعة إلى يسار غرفة الاستقبال والتي تبلغ أبعادها (5,20م×3,20م) فلها مدخل أخر يطل على باحة البيت . وتحتوي على شباكين كل منهما يطل على شارع . ويقع مجاورا لمدخلها هذا مدخل أخر يؤدي إلى السلم عليه باب (غير موجود حاليا), ويقع في نهاية هذا السلم حمام معلق(8) يجاوره غرفة معلقة (9) ورغم ان الغرف المعلقة تقع ضمن حدود الطابق العلوي الا انها تقع هنا ضمن نطاق الطابق السفلي وهي بأرتفاع سقفه ويتم الدخول اليها عن طريق مدخل صغير مجاور للحمام المعلق وتبلغ أبعاد هذه الغرفة (3,10م×2,95م) فيها شباكين احدهما يطل على الشارع والأخر شباك كبير مستطيل الشكل يطل على باحة البيت . أما باحة البيت والتي تمثل المركز بالنسبة لهذا القسم من البيت فهي مستطيلة الشكل بلغت أبعادها (10م×4,50م) تحتوي على باب يؤدي إلى القسم الثاني من البيت وهو نقطة الاتصال الوحيدة بين الجزاين إلا انه تم إغلاق هذا الباب بالأجر. كما وتحتوي على شباكين كبيرين نسبيا يقعان أعلى الجدار يفتحان على القسم الثاني من البيت . ويوزر سقف هذه الغرفة شريط زخرفي بديع متمثلة فيه الزخارف النباتية المتكررة . أما القسم الثاني من البيت فان مدخله الرئيسي (شكل2) تم إغلاقه ببنائه بالأجر وفتح بدلا عنه مدخل أخرمجاور له ويوطر هذا المدخل شريط زخرفي مماثل للشريط الزخرفي في باحة البيت . يؤدي هذا المدخل إلى ممجاز تبلغ أبعاده (2,5م×2,40م) وكان يقع في السابق أسفل منه سرداب إلا انه تم طمره . ويعلو هذا الممجاز إيوان معلق استند سقفه على أعمدة القوغ وفتح فيه شباك يطل على الصحن ,(شكل 3) . وفي الجهة المقابلة يقع إيوان مماثل له إلا انه تم إغلاقه . ويقع على يمين الممجاز غرفة تمثل أرضية للغرفة المعلقة في القسم الأول من البيت لذا فانها اتخذت نفس أبعادها , وتقع على يسار الممجاز غرفة نوم أخرى تبلغ أبعادها(3,20م ×2,40م) ويقع إلى يسارها بقية ملحقات البيت من مطبخ وحمام ومرافق صحية . لينتهي هذا الممجاز بالصحن الذي يمثل مركز هذا القسم من البيت وتطل عليه غرف ومرافق البيت حيث تقع غرفة منام مقابلة للممجاز تبلغ أبعادها (5م×3,90م) لها شباكان يطلان على الصحن (شكل 4) . كما توجد غرفتان تقعان على يسار الداخل احدهما تمثل غرفة الضيوف وتبلغ أبعادها(5,90م×3,20م) ولها شباك يطل على الصحن أيضا . لتجاورها غرفة نوم ثانية مستطيلة الشكل تبلغ أبعادها (6م×3,30م) . أما الصحن الذي تبلغ أبعاده (9,40م× 6,20م) كانت تتوسطه ناقورة إلى فترة ليست بالبعيدة . وتطوق الصحن ظلة من ثلاثة جهات وزرت بالنقوش الرخامية والتي سقط معظمها ولم يبق منها سوى قطعة صغيرة جدا .

(شكل 2)

(شكل 3)

(شكل 4)

يعلو كل قسم من أقسام البيت سطح مستقل يفصلهما عن بعض جدار من الآجر فتح فيه باب واحد فقط للتنقل بين السطحين واحتوى كل سطح منهم على مرافق صحية في احد أركانه .(مخطط رقم 1)

2- بيت الحاج صالح المرسول[10]

شيد الحاج صالح المرسول هذا البيت في منطقة صوب الشامية في شارع الأطباء يرجع تاريخه إلى سنة (1938) حسب نص تذكاري يعلو بابه الرئيسي .وقد تم بيع البيت إلى الحاج هندي احد تجار أهالي الديوانية سنة 1957م , والذي أجرى عليه أعمال صيانة بسيطة منها تبييض الجدران وإزالة الرطوبة , ليبتاع البيت بعد ذلك وللمرة الثانية الحاج فخري سنة 1988م وهو المالك الحالي له [11]. وفي فترة ليست بالبعيدة شهد البيت عملية ترميم من قبل مالكه الحالي ليكون مؤهلا للسكن فقد طمر السرداب الذي كان موجود حتى وقت قريب وحول إيوان البيت إلى غرفة بالإضافة إلى اكساء الأرضيات بالسيراميك وتبييض الجدران , وجرت بعد ذلك بسنة تقريبا عملية ترميم جديدة لتؤدي هذه المرة إلى إخفاء اغلب المعالم التراثية له . يتكون البيت من طابق واحد كما هو حال اغلب البيوت التراثية المجاورة لـه .للبيت واجهة مضلعة جميلة زين كل ضلع بزخرفة التاج المحمولة على أعمدة مزدوجة والتي علت الشبابيك فيها البيت مدخل بابه خشبي مؤلف من مصراعين ضيقين تقريبا زينت هذا الباب زخارف نباتية جميلة

محصورة داخل أطر هندسية بديعة , كما ويعلوه نص تذكاري من الجص معمول بطريقة الصب بالقالب يحتوي على زخارف نباتية تفرعت من زهرية توسطتها .(شكل5)

(شكل 5)

ويتراجع هذا الباب إلى الداخل عن الجدار بمسافة (80سم) ,يؤدي هذا المدخل إلى ممجاز عرضه (150 سم) وطوله حوالي (3,5م) , يوجد على جانبي هذا الممجاز بابان يطل كل منهما على غرفة من غرفتي استقبال الضيوف اللتان اتخذتا شكل أشبه بالمربع نتيجة لوقوعهما خلف الواجهة المضلعة للبيت .غرفة الاستقبال الواقعة إلى يسار الممجاز تبلغ أبعادها (4×4م) , الضلع الشرقي فيها يمثل احد جوانب التضليع الخارجي للبيت ويحتوي هذا الضلع على ثلاثة شبابيك اثنان صغيران على طرفي هذا الضلع يقعان على جانبي الشباك الكبير الرئيسي الذي توسط هذا الضلع وجميعها مطلة على الشارع .أما جداره الغربي فله بابان احدهما يطل على غرفة تابعة لغرفة الضيوف وهي لمنام الضيوف أبعادها (3×4م) , ولهذه الغرفة باب يؤدي إلى باحة البيت . أما الباب الثاني في الضلع الغربي فيؤدي هو الآخر إلى باحة البيت أما الجزء الواقع إلى يمين الممجاز فهو مماثل لما موجود في يساره تماما حيث غرفة استقبال لكنها مخصصة للحريم وهي اكبر قليلا من الغرفة على يساره حيث تبلغ أبعادها (4×5م) , وضلعها الشرقي مماثل تماما للضلع الشرقي في غرفة الاستقبال الواقعة على يسار الممجاز من حيث التضليع والشبابيك وضلعها الغربي يحتوي بابان احدهما يفتح على غرفة النوم الضيوف فيها باب يؤدي إلى باحة البيت . ينتهي الممجاز بدوره بباب خشبية يفتح على باحة البيت والتي هي عبارة عن قاعة أو صالة مغلقة تبلغ أبعادها (5×6م) تطل عليها أبواب الغرف ومن خلالها يتم الصعود إلى سطح المنزل عن طريق سلم , وتطل باحة البيت من خلال باب خشبية على الصحن .أما الصحن فهو مستطيل الشكل أبعاده (5×7م) ونستطيع تقسيمه إلى قسمين شمالي وجنوبي . القسم الشمالي يضم الإيوان وجزء من الحمام المعلق ومدخل السرداب وان السرداب يقع أسفل هذه المنطقة وقد ألغي هذه السرداب مؤخرا لتعرضه إلى مياه جوفية بسبب سلوات الإهمال التي طالته , فطمر فيما ألغي بابه وهدم سقفه الذي كان يمثل أرضية الإيوان وهذا يعني إن أبعاد السرداب هي ذاتها أبعاد الإيوان أي (3×5م) وارتفاعه (3م) , بلطت أرضيته بالفرشي .ويقع هذا الإيوان[12] في الركن الشمالي الغربي وهو مفتوح على الساحة المكشوفة من جهته الجنوبية , يستخدم الإيوان في كثير من الأحيان للجلوس والراحة في بعض ساعات النهار بلطت أرضيته بالآجر . وقد بنيت واجهة هذا الإيوان ليصبح غرفة منام وذلك ضمن حملة الترميم التي تعرض لها البيت ووضع فيه باب وشباك حديدي للإنارة والتهوية فيما أعيدت تبليط أرضيته بالسيراميك أما الجهة الجنوبية ففيها باب آخر لغرفة النوم التي يقع بابها الرئيسي داخل الباحة , وبجانب هذه الغرفة في وسط الجهة الجنوبية للصحن يوجد المطبخ وهو عبارة عن غرفة مربعة طول ضلعها (3م) .

وفي نهاية هذه الجهة توجد غرفة فيها سلم يؤدي إلى سطح الحرم وأسفله مرافق صحية (كان يوجد حمام معلق إلا انه هدم أثناء الترميم) .ولهذا الصحن مظلة تطوقه من ثلاث جهات وقد صممت لكي تقلل من أشعة الشمس الحارة في الصيف والتي تؤثر على درجة حرارة البيت.وتركت الجهة الغربية لهذا الصحن من دون بناء وهي تمثل نهاية الصحن ونهاية البيت أيضا . قسم سطح البيت إلى قسمين هما سطح الضيوف وهو الذي يعتلي غرف استقبال الضيوف والباحة وغرفة النوم الداخلية وغرفتا منام الضيوف ويرتقى إليه عن طريق السلم الذي يقعداخل الباحة . والسطح الثاني هو سطح الحرم هو الذي يعتلي الإيوان والمطبخ إضافة إلى الشرفة التي تحيط بالصحن ويتم الصعود إليه عن طريق السلم الخارجي الذي يقع في الصحن .وكان يفصل السطحان عن بعضهما جدار ألغي في وقت سابق بعد إجراء الترميمات على البيت. (مخطط رقم 2)

3- بيت الحاج علي الجاسم[13]

ومن البيوت التراثية الأخرى بيت الحاج علي الجاسم يقع في منطقة صوب الشامية في شارع الأطباء أيضا .ومما لاحظناه وجود تقارب في التصميم بين هذا البيت وبيت الحاج صالح المرسول . وهو ذو واجهة مضلعة تمتد لمسافة(11,30م) يتوسطها المدخل الذي زينته زخارف هندسية كما علاه شباكان زينتهما زخارف نباتية باسلوب هندسي عملت بواسطة قضبان الحديد وقد

الدفع هذا المدخل نحو الداخل لمسافة (1,20م) , ويقع على جانبيه شباكان كبيران رئيسيان يحف بهما من الجانبين شباكان صغيران , (شكل 6)

(شكل 6)

يؤدي هذا المدخل إلى ممر عرضه (1,5م) وطوله حوالي (4م) , ويوجد على جانبي هذا الممر بابان يطل كل منهما على غرفة من غرفتي استقبال الضيوف اللتان اتخذتا شكل أشبه بالمربع نتيجة لوقوعهما خلف الواجهة المضلعة للبيت.غرفة الاستقبال الواقعة الى يسار الممر تبلغ أبعادها (5,20 × 4,5م). الضلع الشرقي فيها يماثل احد جوانب التضليع الخارجي للبيت ويحتوي هذا الضلع على ثلاثة شبابيك اثنان صغيران على طرفي هذا الضلع يقعان على جانبي الشباك الكبير الرئيسي الذي توسط هذا الضلع وجميعها مطلة على الشارع .أما جداره الغربي فله باب يطل على الصحن,وبالنسبة لغرفة الاستقبال الواقعة إلى يمين الممر فهي مماثلة للغرفة في يساره في التصميم مختلفة عنه في الحجم حيث تبلغ أبعادها (5,20×4,20م). وهي غرفة استقبال مخصصة للحريم. ضلعها الشرقي مماثل للضلع الشرقي لغرفة الاستقبال في الجهة الأخرى من حيث التضليع والشبابيك , كما ويحتوي ضلعها الغربي على باب يفتح على الصحن.ويقع خلف غرفة الاستقبال في الجهة اليسرى غرفة نوم تبلغ أبعادها (3,60م×4,30م) تحتوي واجهتها المطلة على الصحن على شباكين يتوسطهما باب (شكل7). كما وتحتوي الغرفة على شباكان بارتفاع متران تقريبا يطلان على الشارع .

(شكل 7)

يقابل هذه الغرفة ملحقات البيت (المطبخ, الحمام المرافق الصحية), حيث جعل المطبخ يتوسط الحمام والمرافق الصحية, وعملت جميعها ببناء بسيط جدا. على ان الحمام بني من جزئين الأول المنزع وهو مربع الشكل يبلغ طول ضلعه (1,30م). وهو يتقدم الحمام الذي يماثل الجزء الثاني والذي تبلغ أبعاده (1,20م× 2,20م) وهو مسقف بقبو نصف اسطواني وهو الجزء الوحيد في البيت الذي سقف بهذه الطريقة. (شكل 8)

(شكل 8)

وعلت جميع هذه الملحقات شرفة داخلية بارتفاع (2,30م) تطل على الصحن يحدها سياج حديدي (محجر) . (شكل9)

(شكل 9)

ويقع سلم البيت خلف المطبخ وقد عمل بطريقة منحنية حيث يضطر الشخص الصاعد إلى الانحناء نحو اليسار أولا ليتمكن من صعود السلم الذي يؤدي إلى الشرفة أولا وهي بدورها تؤدي إلى السطح عن طريق سلم ثاني وهو مسقف أيضا . ومن المعروف إن صحن البيت التراثي تميز بكونه مفتوح ليتمكن من إدخال الهواء والضياء إلى غرف ومرافق البيت كما أسلفنا . ألا إن ما يلفت الانتباه إن صحن البيت هذا مسقف بسقف مستوي بالعقادة . وان هذا التسقيف عمل في وقت متأخر عن بناء البيت . إلا انه لم يغب عن بال المعمار فائدة كون الصحن أن يجعل مفتوحا فعمل على جعل شبابيك أسفل هذا التسقيف لتعمل على إدخال الهواء والضياء إلى البيت . (شكل 10)

(شكل 10)

أما سطح الدار فقد ارتفع في وسطه تسقيف الصحن بعلو نصف متر تقريبا وبلطت أرضيته بالفرشي . وهنالك وحدة بنائية صغيرة تقع في الزاوية الشمالية الشرقية من السطح وهي مكونة من دكة بنائية يعلوها تسقيف معمول بأعمدة القوغ من المرجح أنها مخصصة لوضع الفراش في فصل الصيف . (شكل 11)

(شكل 11)

زينت واجهة البيت بثلاث شرفات واحدة في الوسط يكتنفها شرفتان على الجانبين الا أن السياج الحديدي (المحجر) لهذه الشرفات غير موجود حاليا , كما أن العقود النصف دائرية التي زينت الحائط الأمامي (الستارة) للبيت قد بنيت واغلقت فتحاتها. (مخطط رقم 3)

ب- منطقة الحمزة الشرقي:

1- بيت الحاج صالح المرسول:

يتكون هذا البيت من قسمين احدهما اندثرت اغلب معالمه على الرغم من انه بني في فترة لاحقة عن بناء القسم الأول[18]. يتم الدخول للبيت عن طريق مدخل بابه مزلف من مصراع واحد تم إلغاء هذا المدخل واستحداث مدخل آخر مجاورا له بدلا عنه. يؤدي المدخل إلى صحن البيت ويقع في الجهة المقابلة له غرفتان للمنام تبلغ أبعاد أحداهما (7×3م) والغرفة الأخرى اصغر حجما تبلغ أبعادها (4×3,50م). وتحوي كل منهما شباك يطل على الصحن (شكل 12). ويقع على يمين هاتان الغرفتان غرفة نوم ثالثة يفصلها عنهما بناء صغير اتخذ كمخزن وله باب صغير وبلغت أبعاد غرفة النوم هذه (5×4م). انحصر مدخلها بين شباكين وتطل جميعها على الصحن .ويتقدم هذه الغرف الثلاثة طارمة مسقفة بظلة وجميع هذه الغرف بلطت بالفرشي. بينما الطارمة التي تقدمتها بلطت بالمذابوق. (شكل 13)

(شكل 12)

(شكل 13)

أما القسم الثاني من البيت فيقع على يمين الداخل وهو مؤلف من ثلاثة غرف أيضا اثنان منها متساويتان بالقياس تقريبا حيث تبلغ أبعادهما (6× 4,30م) والثانية (6,60×4,30م) تخدمتها طارمة بلطت بالفرشي. أما الغرفة الثالثة فأنها تقع على يسار هاتين الغرفتين أما بالنسبة للمدخل فأنها تقع على يمينه وتبلغ أبعادها (6,70×4م) تحتوي على ثلاثة شبابيك في احد جدرانها وثلاثة كوات في الجدار الأخر (شكل 14). كما بني حمام جعل محله خارج جدران البيت الرئيسية يدخل إليه عن طريق باب فتح مجاورا لهذا القسم , ويعلو مدخله سلم يؤدي إلى السطح اندثر وبقي القليل من أسسه .ويجاور الحمام طارمة خارجية مبلطة بالطابوق .(شكل 15) (مخطط رقم 4)

(شكل 14)

(شكل 15)

** العناصر الزخرفية:

للعناصر الزخرفية بمختلف أشكالها وأنواعها جمالية كبيرة ذلك لأنها تضفي لمسة فنية أخاذة على المكان الذي تحليه فضلا عن أنها تكسر من رتابته في عين الناظر . على أن لهذه الزخارف رغم أهميتها أمور تحجم من استخدامها من أهمها الحالة المادية وتوفر

المواد الأولية الداخلة في صناعتها , فهي تصل في بعض البيوت إلى استخدام المرايا في تضليعات الأشكال الهندسية , بينما تكتفي بيوت أخرى بتنظيم الآجر في الواجهات أو في العقادة لرسم بعض الأشكال الزخرفية[15].

ولقد اقتصرت العناصر الزخرفية في البيوت التراثية التي قمنا بدراستها على واجهة تلك البيوت متمثلة بزخارف الشبابيك والمدخل, باستثناء زخارف جصية معمولة بالقالب تحلي السقف في باحة بيت السيد جابر وكذلك زخارف جصية توزر الظلة التي تطوق الصحن في البيت ذاته, فشاهدها زينت الشبابيك وعلت المدخل الرئيسي مع ظلته.وترجح على الأكثر انه كانت توجد زخارف تحلي تلك البيوت من الداخل أسوة ببقية البيوت التراثية التي ترجع إلى الفترة ذاتها أو فترة مقاربة لها لكنه نتيجة لعمليات الترميم المستمرة أزيلت معظم معالم تلك الزخارف.فالنسبة لزخارف الشبابيك في بيت الحاج صالح المرسول (في شارع الاطباء) كانت عبارة عن ثلاثة أعمدة مندمجة بالجدار تعلوها تيجان مؤلفة من أكثر من طبقة لتحمل بدورها عقد منتفخ ثلاثي مزدوج متراجع يقع أسفله زخارف هندسية قوامها أعمدة اسطوانية مندمجة بالجدار , ويلاحظ إن زخرفة الشبابيك هذه تقع داخل مربع متراجع إلى الداخل عن سمت الجدران ,زين ضلعه الأعلى بزخرفة أسنان المنشار (شكل 16) . كما زينت أسفل الشرف في البيت زخرفة أجريه بأشكال أشبه بالمعينات احدها ظهر غائرا والآخر بارزا بصورة متناوبة (شكل 17) .

(شكل 16)

(شكل 17)

أما المدخل فقد زين هو الآخر بزخارف سواء على مصراعي الباب الخشبية أو في أعلاه , فبالنسبة لزخرفة الباب تنوعت بين الهندسية من أشكال بيضوية ومستطيلات مشطوفة الجوانب وبين النباتية من أغصان حلزونية , في حين كانت الزخارف الجصية التي علت الباب والمعمولة بالقالب نباتية تمثلت بأغصان ملتوية تشكل دوائر تضم داخل بعضها أوراق معرقة وفي بعضها الآخر وردة متعددة الفصوص على إن جميع هذه الأغصان تخرج من زهرية كتب في قاعدتها تأريخ إنشاء البيت وهو سنة (1938), وقد انحصرت هذه الزهرية بأغصانها وأزهارها بعقد نصف دائري منفوخ (لوح 1) . كما زينت كوشتي العقد بزخارف نباتية عبارة عن أزهار وحوالق (شكل18)

(شكل 18)

ولم تقتصر الزخارف في بيت الحاج صالح المرسول على هذه المناطق بل تعدتها إلى الشرفة التي علت المدخل الرئيسي والتي اتخذت شكل مثمن مقطوع الرأس , وزخرفت الشرفة عملت بواسطة التلاعب بوضعيات الآجر فنراها تنوعت بين الأشكال المضلعة والزخرفة الحصيرية (لوح 2) , وكذلك في رصف القطع الأجرية في عمل العقادة في الغرف ,وكذلك اقتصرت الزخارف في بيت الحاج علي الجاسم على واجهة البيت أيضا وهي التي زينت الشبابيك واعتبرت الزخرفة الرئيسية في هذا البيت وتمثلت بالأعمدة الحاملة للعقود في الشبابيك , حيث اندمجت الأعمدة نصف الاسطوانية بالجدران وعلتها التيجان التي حملت العقود نصف البيضوية , وزينت أسفل هذه العقود وردة مفصصة (شكل 19)

(شكل 19)

أما الباب فهي موثقة من طلاقتين تعلوهما نافذتان فزينته زخارف عملت من قضبان الحديد فأعطتنا شكل وردة مفصصة , والباب زخرف بزخارف هندسية عبارة عن مستطيلات منحنية الأضلاع (شكل 6) , وفي السابق كان يزين الباب مطرقة حديدية بهيئة يد ماسكة لكرة ,وعلى الأرجح انه كان يعلو الباب لوح تذكاري على غرار الألواح التذكارية التي تعلو الأبواب في البيوت التراثية إلا انه تم إزالته بملاط جصي كما تم الاعتماد على الزخارف الهندسية والتي تم الحصول عليها عن طريق التلاعب بوضعيات الآجر , فنشاهد قطع الآجر بهيئة أسنان المنشار علت عقود الشبابيك والباب , كما إنها زينت (ستارة) البيت من الخارج

وكذلك زينت واجهة البيت من الأعلى زخرفة عملت بالآجر وذلك برصفه بطريقة عمودية وزينته من الجوانب زخرفة هندسية عبارة عن مربعات مشطوفة الجوانب غائرة إلى الداخل في الجدار. وتفتقر بقية غرف ومرافق البيت إلى الزخارف بجميع أنواعها.(شكل 20)

(شكل 20)

أما الزخارف الحصيرية فنراها زينت أرضية الشرفات من الأسفل .(شكل 21)

(شكل 21)

على إننا نشاهد الزخارف الجصية المعمولة بالقالب والمعتمدة في البيوت التراثية في العراق قد زينت أسفل سقف الباحة في بيت السيد جابر فنشاهد أطارا زخرفيا تمثل بعناصر نباتية عبارة عن مراوح نخيلية وإزهار وأوراق اتخذت شكلا أشبه بالقرون وأنصاف أوراق متناوبة عملت بتنسيق جميل(شكل22) (لوح 3) , كذلك زين وسط الباحة بصرة زخرفيه جصية دائرية الشكل اتخذت شكلا أشبه بالوردة (شكل23) . كما نشاهد أطارا أخرا زين أسفل الظلة المطوقة للصحن زخارفه مقاربة في الهيئة والتصميم للإطار السابق (شكل24) . ونشاهد أطارا زخرفيا أخرا زين مدخل بيت العائلة السابق حيث بقيت منه أجزاء كبيرة وهي مماثلة للإطار الزخرفي المزين لظلة الصحن .(شكل 2)

(23

(شكل 24)

أما الزخارف الاجرية فقد استغل المعمار التسقيف وأرضية الشرفة بعمل زخارف متنوعة لا تختلف عن سابقتها في البيوت الأخرى من زخارف حصيرية وأسنان المنشار ورصف الآجر بطريقة عمودية استخدمها في تزيين واجهة بيت الضيوف .

ولم تقتصر الزخارف في بيت السيد جابر على هذه الأجزاء من البيت بل تعدتها إلى السرداب والذي زينته زخارف عملت بالآجر وهي عبارة عن عقود نصف دائرية حصرت في المناطق المتخلفة بينها ما يعرف بالمثلثات التركية [16] (شكل 25) , ونتيجة لارتفاع نسبة المياه الجوفية التي غمرت السرداب وسقوط السلم الذي ينزل منه إليه لم نتمكن من النزول واستكشاف السرداب بالتفصيل ومعرفة ما إذا كانت هنالك زخارف تزور أسفل الجدران فيه أو إذا ما كان محتويا على كوات لوضع الحاجيات المستعملة في السرداب على إننا قمنا بتصوير إحدى عقوده عن طريق شباك الإنارة الذي فتح أسفل سقفه والمطل على الشارع .

(شكل 25)

** المواد البنائية:

على الرغم من تنوع مواد البناء في البيوت التراثية إلا أنها لا تخرج عن إطار ما كان مألوفا من مواد بنائية في تلك الفترة . فتراها اختلفت بين الآجر والاسمنت والجص والخشب ,وهذه المواد كانت سائدة الاستعمال لكونها متوفرة أولا ولملائمتها لطبيعة المناخ القاري العراقي ثانيا ففي حين استخدم الآجر في بناء الجدران كمادة أساسية عمل المعمار وبطريقة تنم عن ذكاء كبير على عمل زخارف جميلة بالتلاعب بوضعيات رصف القطع الاجرية في البناء , أي انه استغل استعمال الآجر هنا لغرض عماري وزخرفي في آن واحد فتراه استخدم أيضا الجص كمادة رابطة ولاكساء الجدران ومادة أولية في عمل الزخارف عن طريق قوالب خاصة , والفرشي في تبليط أرضية السطح.أما الأبواب والشبابيك فقد استعمل أنواع من الخشب في عملها ومن تلك الأنواع خشب الساج والذي كان أكثر الأنواع توفرا وانسبها استعمالا لمقاومته لعامل الرطوبة في عمل الأبواب والشبابيك . واغلب هذه الشبابيك

تتكون من مصراعين الا البعض منها يتكون من مصراع واحد وذلك في النوافذ الصغيرة أو ثلاث مصاريع .(شكل 1) والنوع الأخر هو خشب القوغ في عمل الأعمدة الحاملة للسقوف . أما عن استخدام الحديد فقد دخل هذا المعدن في العقادة بعمل قطع (الشيلمان) ودخل استعماله في العراق بدلا من الخشب في التسقيف مع دخول المعماريين الانكليز بعد الحرب العالمية الأولى[17] . واختلفت أماكن استخدامه بين عمل العقادة أو في القضبان الحديدية في الشبابيك والشرفات .

وزيادة في مقاومة أرضيات المرادب والغرف للرطوبة والمياه الجوفية والتي يرتفع منسوبها بين فترة وأخرى فقد استخدم الاسمنت بشكل أساس في تبليط أرضيتها.

** مخططات البيوت المختارة لغرض الدراسة.

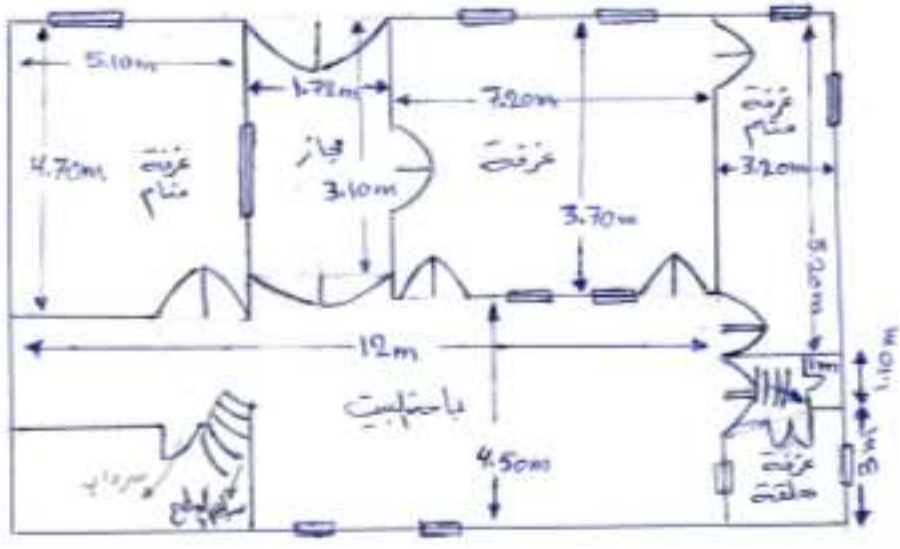

بيت السيد جابر سيد سرحان / بيت الضيوف
مخطط رقم (1)

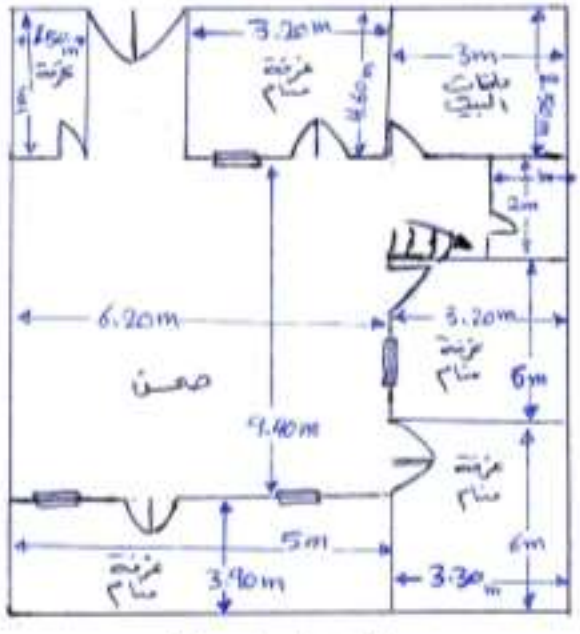

بيت السيد جابر سيد سرحان

بيت العائلة
مخطط رقم (2)

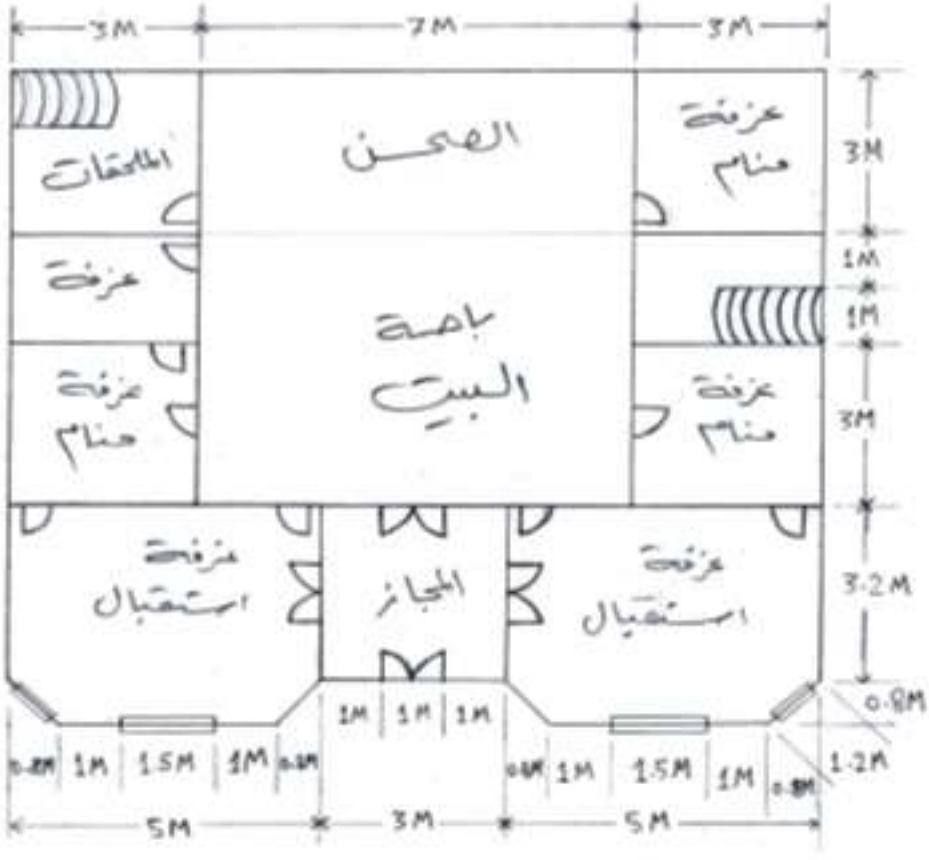

بيت الحاج صالح المرسول
مخطط رقم (2)

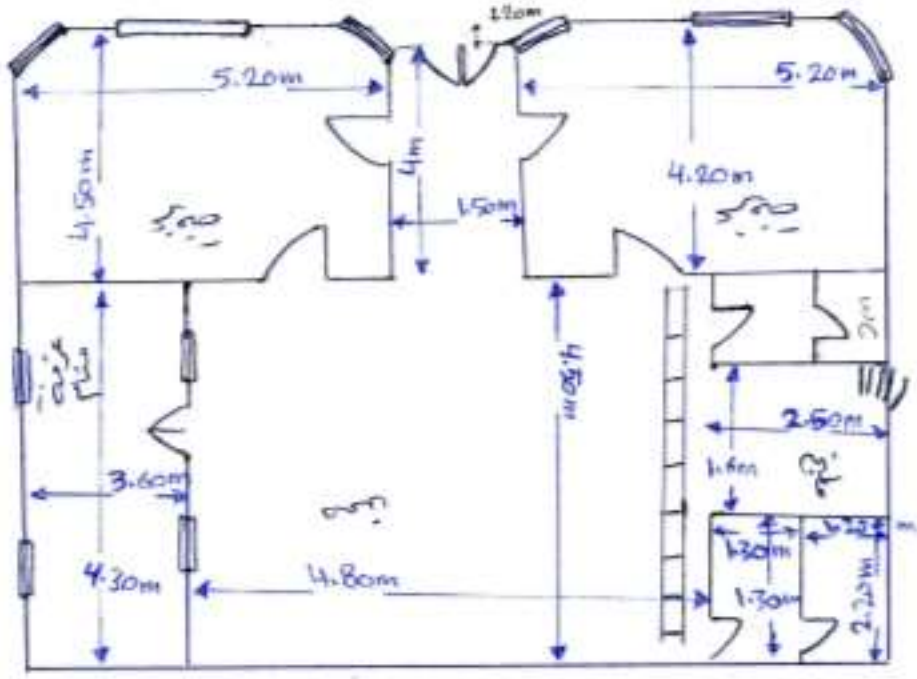

بيت على الجاسم
مخطط رقم (3)

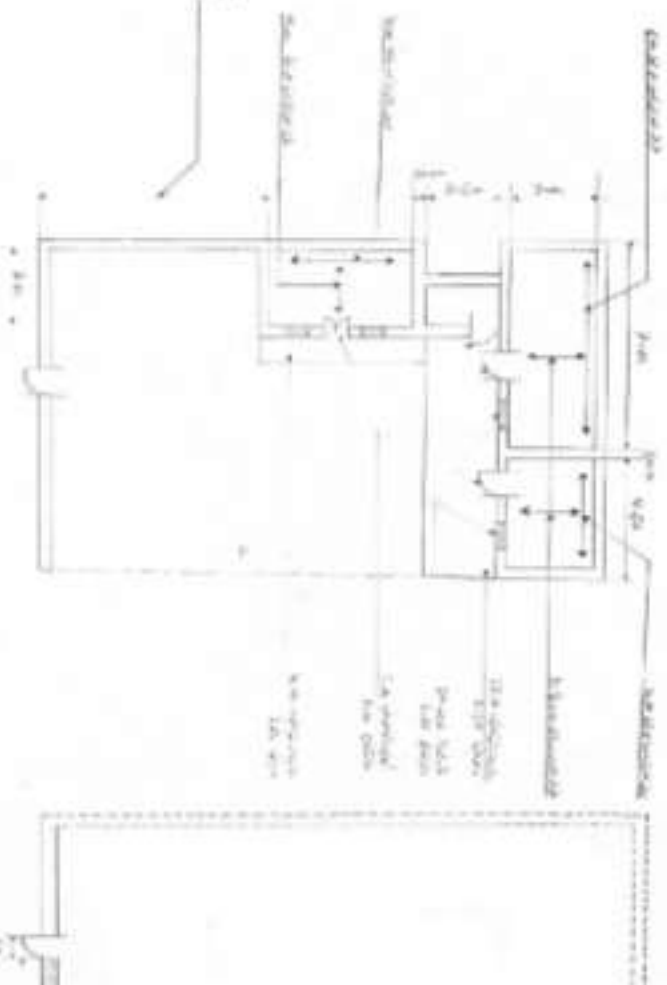

، الحاج
سالح
رسول
ط رقم
(4)

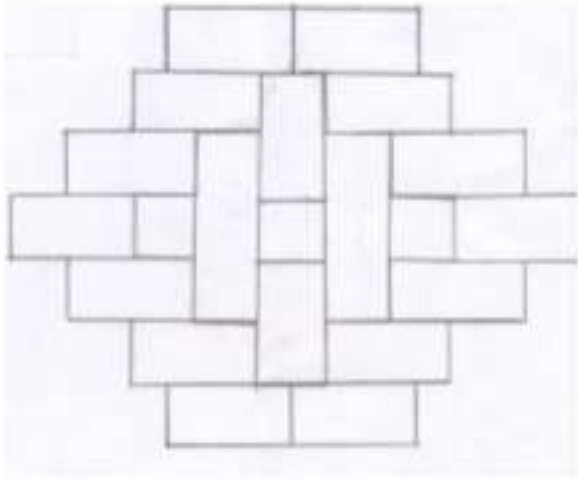

** الاستنتاجات

بالرغم من الاختلاف الطفيف في تخطيط البيوت التراثية واعتمادها على مواد بنائية واحدة إلا أن هناك ما يجمع بينها [18] حيث خضعت في تصميمها لأسس عمارية واحدة أصلها الساحة الوسطية المكشوفة أو ما يعرف (بالصحن) المحاط بغرف وملحقات البيت. ومن الأسس التي خضعت لها تلك البيوت :

1- **الانفتاح على داخل المنزل**: وهو ميزة للمباني التراثية حيث نشاهد أبوابها وشبابيكها مفتوحة على داخل المنزل , وبالتأكيد أن ذلك لم يأتي اعتباطا بل هو أمر مدروس من قبل البناء العراقي حيث يتيح هذا الأمر لأشعة الشمس شتاءا بالتغلغل داخل المنزل ولنسمات الهواء العذبة بالدخول إليه أيضا , على أن أهم ميزة له هي المحافظة على حرمة العائلة حيث لم يفسح هذا النوع من التصاميم للمارة في الشارع من النظر إلى داخل المنزل.

2- **الفناء الوسطي والمداخل المزورة** : يعد الفناء الوسطي من الأجزاء الرئيسة في البيت العراقي حيث اعتمد هذا المبدأ في التصميم منذ القدم في البيت العراقي القديم . ورغم اعتماد هذا المبدأ في التصميم إلا أننا نلاحظ وجود صحن واحد في بعض البيوت وصحنين في بعضها الآخر احدهما مسقوف والآخر مكشوف.

والمعروف عن الفناء انه يتوسط المنزل ويكون مكشوفا وبالتالي يمثل محور البيت[19]. أما المداخل المزورة [20], والتي وجدت للحفاظ على حرمة من في الدار فانها ميزة للبيوت التراثية حيث يضطر الداخل إلى الدار أن يستدير بدرجة (90), والتي تصل إلى حد التعامد مع محور الساحة الوسطية.

3- **السرداب (21):** يعد السرداب من الأجزاء الرئيسة في البيت التراثي العراقي حيث يعد احد خصائص البيوت الشرقية عامة والعراقية بوجه خاص.

وتميزت البيوت التراثية في العراق بأن السرداب جزء رئيسي فيها يمثل طابق بنائي ثاني مستقل عن أجزاء المنزل الأخرى. ويتراوح عمقه بين (6-7م) , ويستخدم لاغراض القيلولة في وقت منتصف النهار لأنه يكون بارد بسبب وجود التهوية المستمرة والابتعاد عن حرارة الشمس في فصل الصيف[22], أو كحجر إضافية لخزن المؤن وبعض الأثاث الزائد (ويكون ذلك في السراديب قليلة العمق).

4-**الزخارف والتزيين :** أما الزخارف فهي تختلف في أشكالها وانواعها وكثرتها , فقد استخدم البناء قوالب الجص والزخارف الأجرية في تلك التحليات الزخرفية[23], واختلف نوع وطبيعة ومساحة هذه التحليات حسب اختلاف الحالة المادية لصاحب المنزل , فالأثرياء كانوا يكثرون من الزخارف وبمختلف الأشكال فأكثروا من زخارف السقوف والأعمدة وزخارف الشبابيك والأبواب الخشبية بالحفر والطلاء , بينما ذوي الدخل المحدود فكان استخدامهم للزخارف قليل . كما يمكن أضافة خصيصة أخرى تجمع بين تلك البيوت على الأغلب وهي مواد البناء التي اعتمدت بالدرجة الأساس على الآجر كمادة بنائية أساسية والجص كمادة رابطة , والخشب من نوع الساج (نظراً لتوفره) في عمل الأبواب والشبابيك وخشب القوغ كأعمدة في التسقيف , وقطع الحديد (الشيلمان). على إن براعة المعمار تظهر في استغلاله لمادة الآجر في عمل التحليات الزخرفية إلى جانب كونه مادة البناء الأساسية من خلال التلاعب بوضعياته فتراه أتحفنا بمجموعة من التحليات الزخرفية التي تمثلت بالزخارف الحصيرية وأسنان المنشار والزخارف الاجرية الغائرة والبارزة بالتناوب وبالاضافة الى كل ما ورد في اعلاه نلاحظ ان اصحاب هذه البيوت قد راعوا أن تكون ذات تصميم مؤلف من وحدتين بنائيتين تمثل كل واحدة منها وحدة بنائية مستقلة عن الأخرى أي إن لها صحن تحيطه الغرف وملحقات وله سطح مستقل خاص به. بحيث خصص احد هذه الوحدات لسكن أفراد العائلة المالكة وخصص الأخر للضيوف.على إن ابرز ما تميزت به بيوت محافظة الديوانية بوجود وحدة عمارة جديدة وهي الحمام المعلق والذي اتخذ مساحة صغيرة يصعد اليه بسلم صغير مستقل او بسلم البيت ذاته . حيث اننا نعلم بوجود الغرفة المعلقة في تصميم البيوت التراثية العراقية لكننا لا نعلم بوجود حمام معلق , وعلى هذا الاساس ممكن ان نعتبرها ابتكار جديد وميزة عمارية انفرد بها البيت التراثي الديواني .

** الهوامش والمصادر:

1- عبد الحسين , رعد . الوظيفة السكانية لمحافظة الديوانية , رسالة ماجستير غير منشورة مقدمة الى كلية الآداب , جامعة القادسية , 2002, ص 14

2- الكرعاوي , حميد عبود كزار . تحليل جغرافي لمكونات سياحية وتسميات في محافظة القادسية , رسالة ماجستير غير منشورة مقدمة إلى كلية الآداب , جامعـــة القادسية , 2006, ص 96.

3_ الجوهري , اسماعيل بن حماد . الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية , تحقيق احمد عبد الغفور عطار , ط4, دار العلم للملايين, بيروت , 1990, ص 1579.

4- الجنوري , حسون عبود . التحليل المكاني للخدمات العامة في مدينة الديوانية , رسالة ماجستير غير منشورة مقدمة إلى كلية الآداب , جامعة القادسية , 2005, ص 28.

5- عبد الرسول , سليمة . المباني التراثية في بغداد , بغداد, 1987, ص 10.

6- وهو السيد جابر ابن السيد سرحان سيد سلطان سلمان آل محمود . صارت له الرئاسة على الشافعية , وسكن الديوانية سنة 1930 وأصبح من أعيانها وأشرافها البارزين ... العطية , الحاج وداي . تاريخ الديوانية ,ط2, منشورات المكتبة الحيدرية , النجف الاشرف, 1958 , ص 286-287.

7- جعل السيد جابر بيته مؤلفا من وحدتين مستقلتين الواحدة عن الاخرى احدهما خصصها لضيوفه والاخرى لافراد عائلته .

8_ ويتم الصعود اليه عن طريق سلم صغير مستقل به او في احيان اخرى عن طريق سلم البيت الرئيسي ويكون ارتفاعه بارتفاع سقف الطابق السفلي للمنزل .

9_ وهي غرف اتاح ارتفاع الطابق العلوي الذي يصل في معظم البيوت اكثر من 4م الى الاستفادة منه لعمل غرف صغيرة معلقة بارتفاع مناسب محله في معظم البيوت التي تتواجد فيها مثل هذه الغرف حوالي 2م بعد قطع هذا الارتفاع بواسطة الواح خشبية سميكة كانت تؤلف ارضية لهذه الغرف التي تعرف في بغداد والمنطقة الجنوبية (كشكان) .

حسن , حميد محمد . الغرفة المعلقة في البيت العراقي طرازها ووظيفتها , مجلة سومر , ج1و2, مج 39, 1983, ص 268.

10_ وهو شيخ علم عشائر الاكرع . انتخب في مجلس الاعيان الملكي . شيد الحاج صالح المرسول بيتان متلاصقان متماثلان في تصميمهما في منطقة صوب الشامية (شارع الاطباء) سنة 1938.

مقابلة شخصية مع الحاج هادي الابن البكر للحاج صالح المرسول يوم الاحد الموافق 10/5/2009 الساعة 2 ظهرا .

11_ مقابلة شخصية مع الحاج فخري يوم الاثنين الموافق 11/5/2009.

12_ الايوان : كلمة تنحدر من اصول فارسية وربما تعود الى معاصر أسبق كان تكون بابلية او اشورية او ارامية . وهي فضاء عماري مغلق ومفتوح . ويستعمل في اللهجات العامية (اليوان) ولا سيما في الخليج العربي بما يعني فسحة او مربعا مسقوفا

ادريني , علي . معجم عمارة الشعوب الاسلامية ,ط1, بغداد , ص 12

13_ عرفت هذه العائلة بآل جاسم نسبة الى جدهم (جاسم آغا) الذي جاء سنة 1258م مع المغول الى الديوانية وعمل كمتعهد لأعاشة الجيش وبعد ذلك أقام في الجامع .
العطية , المصدر السابق , ص 254 .
14_ بني القسم الاول من هذا البيت سنة 1945م والقسم الثاني سنة 1950م الا انه اندثر ولم يبقى الا القليل من جدرانه .
مقابلة شخصية مع الحاج هادي يوم الاحد الموافق 10/5/2009 الساعة 2 ظهرا .
15_ عبد الرسول , المصدر السابق , ص 28 .
16_ هو عنصر عماري ورد في العمارة العثمانية في بداياتها الاولى ولم تستمر بعدها وقحواها شكل مثلث قاطع قمته تحضر لمرور القاعدة المربعة او المضلعة للقبة لذاتها او ما يجاورها من قباب .
ثويني , المصدر السابق , ص 628
17_ عبد الرسول , المصدر السابق , ص 19.
18_ أطلقت عليها الدكتورة سليمة عبد الرسول (عناصر التصميم الاساسي للبيت التراثي)
لمعرفة المزيد ينظر _ عبد الرسول , المصدر السابق , ص 24_ 30.
19_ عبد الرسول , نفسه , ص 24.
20_ عرف هذا النوع من المداخل منذ القدم في بوابات بغداد والحضر ولكنه وجد فيها لأغراض دفاعية عسكرية تختلف عن ماهو موجود في مداخل البيوت التراثية والتي وجد فيها لغرض الحفاظ على حرمة من في الدار .
21_ وهي كلمة فارسية تتكون من مقطعين هما (سرد – اب) اي الماء البارد ويطلق عليه أيضا اسم (زير – زمين) وتعني بناء تحت الأرض . والسراديب على انواع منها سراديب النوم وسراديب الدفن وسراديب السجون والسراديب الدينية ...الخليلي , جعفر _ موسوعة العتبات المقدسة , قسم النجف الأشرف , ج 2 , ص 125
وعرفت السراديب في العراق منذ العصور الاولى حتى اصبحت أهم وأبرز وسائل التبريد في العصر العباسي واستمر استعمالها لهذا الغرض حتى وقت قريب على الرغم من تعدد وسائل التبريد الحديثة . المختار , فريال . السرداب العراقي , مجلة كلية الاداب , قسم الآثار , العدد 20, مطبعة دار الجاحظ للطباعة والنشر , بغداد , 1976, ص 441.
22_ شريف , يوسف _ فن العمارة العراقية في مختلف العصور , بغداد , 1985 , ص 38.
23_ عبد الرسول , المصدر السابق , ص 28 .